إن هذه النهاية تحقق معنى من معاني الانتصار، من المنتصر؟ الذي نصر عقيدته ودين ربه، وحُرّق بضع دقائق، ثم انتقل إلى جنات النعيم، أو ذلك الذي تمتع بأيام في الحياة الدنيا ثم مآله ـ إن لم يتب ـ إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق؟.

هل هناك مقارنة بين الحريق الأول، والحريق الثاني، حريق الدنيا، وحريق الآخرة؟ إنّها نقلة بعيدة، وبَوْن شاسع، أما المؤمنون الذين حُرّقوا في الدنيا، فـ ﴿لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾. [سورة البروج الآية: ١١]. وتعلن النتيجة التي لا مِراء فيها، ولا جدال:

«ذلك الفوز الكبير». أليس هذا هو الانتصار؟.

أحاديث في الانتصار

وردت بعض الأحاديث عن رسوله الله، ﷺ، نجد فيها دلالة لحقيقة الانتصار، وإزالة لما يُتوهّم من معنى الهزيمة.

وسأذكر أربعة أحاديث، وأقف مع كل حديث مبينًا وجه الاستدلال فيه.

١ ـ الحديث الأول:

أخرج الإمام البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله، ﷺ، «عُرضت عليّ الأمم

فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل: هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قدّامهم لا حساب عليهم ولا عذاب»[25]. الحديث.

وفي رواية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: خرج علينا النبي، ﷺ، يومًا فقال: **«عرضت عليّ الأمم، فجعل يمر النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرُّهط، والنبي ليس معه أحد. . .»**[26] الحديث.

وفي رواية لمسلم، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله، ﷺ، **«عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرُّهَيْطُ**[27]**، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم. . .»**[28]الحديث.

وقد ورد الحديث بروايات أخرى في معنى هذه الروايات.

---

(25) اخرجه البخاري (6541).

(26) اخرجه البخاري (5752).

(27) الرُهيط: قال النووي هم بضم الراء تصغير الرهط. وهي الجماعة دون العشرة. مسلم بشرح النووي 3/53.

(28) اخرجه مسلم. (220).

وتبرز صلة هذا الحديث في موضوعنا من خلال ما يلي:

١ ـ ورد في الحديث، أنّ الرسول، ﷺ، نظر إلى سواد كثير، وفي رواية: سواد عظيم، ثم رأى سوادًا كثيرًا ـ آخر ـ سدّ الأفق.

والسواد الأول هم ممن آمن بموسى، عليه السلام، والسواد الآخر هم أمة محمد، ﷺ، وهذا يمثل نوعًا من أنواع الانتصار الظاهر، حيث انتشر الدين وآمن الناس، حتى بلغوا هذا المبلغ، وهو النوع الأول من أنواع الانتصار التي أشرت إليها سابقًا، ومثل ذلك النبي الذين يمر ومعه الأمة.

٢ ـ ورد في الحديث، أن النبي يمر معه العشرة، والنبي ومعه الخمسة، والنبي يمرّ وحده، وفي رواية: فجعل النبي يمر معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد.

ونحن لا نشك في انتصار الأنبياء والرسل كما أخبرنا الله ـ جل وعلا ـ بذلك فقال:

﴿إنّا لننصرُ رُسُلنَا والذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ويوم يقومُ الأشهاد﴾، [سورة غافر، الآية: ٥١]. وغيرها من الآيات التي سبق ذكرها.

وها نحن نجد النبي يأتي يوم القيامة، ومعه العشرة، والآخر معه الخمسة، وثالث ومعه الرجلان، ورابع ومعه رجل واحد، والخامس وليس معه أحد.

والأمر الذي يجب ألّا يغيب عن أذهاننا أن النبي الذي معه العشرة والخمسة والرهيط قد لا يكونون قد آمنوا به واتبعوه في حياته، بل قد يكون بعضهم بعد وفاته، لأن الذين رآهم رسول الله، ﷺ، من أمته ليسوا الذين آمنوا به في حياته ـ ﷺ ـ فقط، بل منهم من آمن به في حياته، ومنهم من آمن به بعد وفاته إلى قيام الساعة، وإن كان رسول الله ـ ﷺ ـ يختلف عن غيره من الأنبياء بأنه خاتمهم وآخرهم.

وبهذا نفهم أن الانتصار ليس بكثرة الأتباع فحسب، وقبول الناس واستجابتهم، هذا نوع من أنواع الانتصار كما سبق، وبخاصة إذا كان الأتباع على المنهج الحق، وإلّا فلا عبرة بالكثرة والقلة.

والمعادلة التي نخرج منها، والحقيقة التي نظفر بها، أنّ النبي ـ كل نبي ـ لا شك في انتصاره في الحياة الدنيا قبل الآخرة، وها نحن نجد عددًا من الأنبياء ليس معهم إلّا أفرادًا، بل بعضهم ليس معه أحد.

فالنتيجة أن هناك أنواعًا أخرى من الانتصار، أشمل مما قد يتبادر إلى أذهان كثير من الناس، وبعض الدعاة. إن إدراكنا هذه الحقيقة وتعاملنا معها هو نوع من الانتصار الذي نبحث عنه بل هو أوّل الخطوات لتحقيق الانتصار.

٢ ـ الحديث الثاني:

عن خباب بن الأرَتْ ـ رضي الله عنه ـ قال: شكونا إلى رسول الله، ﷺ، وهو متوسد بُردة في ظل الكعبة، فقلنا: إلا تستنصر لنا، أو تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يبعده ذلك عن دينه، والله لِيُتمَّنَّ الله ـ تعالى ـ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلاّ الله والذئب على غنمه، ولكنكم تسعجلون**»(٢٩)

ولنقف هذه الوقفات:

١ ـ خبّاب ـ رضي الله عنه ـ جاء إلى رسول الله، ﷺ، يطلب منه الدعاء بالنصر، ـ هكذا أطلق خبّاب، وهو يريد النصر الظاهر، برفع العذاب والأذى الذي كانت قريش تصبه على رسول الله، ﷺ، وصحابته.

فنقله رسول الله، ﷺ، نقلة أخرى مُبينًا له معنى آخر من معاني الانتصار، وهو الثبات على دين الله، وتحمل المشاق والعقبات، حتى لو ذهبت روح المسلم فداء لدينه وعقيدته.

٢ ـ ثم يذكر له رسول الله، ﷺ، النصر الظاهر وأنه متحقق،

---

(٢٩) اخرجه البخاري (٣٦١٢).

ويقسم رسول الله، ﷺ، على ذلك، ولكنه لا يتحقق إلا بعد الثبات والصبر.

٣ ـ **ونجد أنّ ما ذكره رسول الله، ﷺ، وأقسم على حصوله وهو إتمام هذا الدين** ـ وهو نوع من الانتصار ـ قد لا يتحقق في حياة الداعية، فمسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت حَدَثَ بعد وفاة رسول الله، ﷺ، .

- **فعلى الداعية أن يعي هذا الأمر، وأنّ انتصار الدين لا يتعلق بشخصه.**

٤ ـ «**ولكنكم تستعجلون**» صدق رسول الله، ﷺ، إن حرص كثير من الدعاة على انتصار هذا الدين قد يؤدي بهم إلى ارتكاب ما يعوّقه، وهو الاستعجال، إنّهم يريدون أن يروا النتائج في حياتهم، بل في أوّل حياتهم ـ أحيانًا ـ وهذا لم يتحقق لكثير من الأنبياء والرسل.

- **ويعلّمنا رسول الله** ـ ﷺ ـ أن النصر يحتاج إلى الصبر والثبات والتفاؤل مع عدم العجلة.
- **ويعلمنا أن النصر** أشمل مما قد يتبادر إلى أذهاننا.

فليس النصر مقصورًا على النصر الظاهر، والنصر الظاهر لا يلزم أن يتحقق في حياة الداعية.

٣ ـ الحديث الثالث:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله، ﷺ:

أن الله ـ عز وجل ـ قال: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب»[٣٠]. الحديث.

والشاهد من هذا الحديث القدسي، أنّ المؤمن إذا أيقن أنّ الله معه، ويجب أن يُوقن بذلك، ومن كان وليًا لله فإن الله معه، وإذا الله كان معه، يعلن الحرب على من آذاه أو عاداه، فيسلتزم ذلك أن يؤمن إيمانًا لا شك فيه أنّ الله سينصره، لأن المعركة لم تعد بين الداعية وعدوّه، وإنّما هي حرب من الله على هذا المعادي، وبدهيّ أن نعلم من المنتصر ومن الخاسر؟!!.

ومادام الأمر كذلك، فإن الله ـ جلّ وعلاّ ـ هو الذي يقدّر نوع الانتصار وزمانه ومكانه، ولا يخضع هذا لرؤيتنا القاصرة، أو رغباتنا المحدودة، أو اجتهاداتنا البشرية.

● **وما علينا إلاّ أن نعلم يقينًا** أنّ المعركة محسومة من أولها، معروفة نتائجها قبل بدايتها، وأن نتعامل بإيجاب مع هذا اليقين، فلا نستعجل ولا نيئس، ولا نتصرف تصرفًا قد يكون سببًا لحرماننا من النصر الذي لا شك فيه: ﴿وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين﴾. [سورة المؤمنين، الآية: ٤٧].

٤ ـ الحديث الرابع:

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال كان رسول الله، ﷺ،

---

(٣٠) اخرجه البخاري (٦٥٠٢).

إذا مر بهم وهم يعذبون يقول: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»(٣١).

إن الصبر نوع من أعظم أنواع الانتصار، فبالصبر يسمو الإنسان على رغباته ويعلو على مُتَعِ الحياة الدنيا.

والصبر سمة الرجال الأخيار ﴿نعم العبد إنه أوّابٌ﴾.

إنه بالصبر ينتصر على نفسه **أولاً**، وينتصر على عدوه، **ثانيًا**، وينصر مبدأه **ثالثًا**. إننا عندما نذكر انتصار الإسلام في مراحله الأولى نتذكر آل ياسر: ياسر وسمية وعمّار.

إن هذا البيت بصبره وجهاده، وتقديم حياته فداء لهذا الدين، ممن وضع اللبنات الأولى لعزة هذا الدين وظهوره.

لقد انتصروا على ذواتهم **أولاً**، وعلى المشركين **ثانيًا**، ونصروا الإسلام **ثالثًا**.

ثم لهم الجنة بعد ذلك، ﴿فمن زُحْزِحَ عن النّارِ وأُدخِلَ الجنة فقد فاز﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٨٥]. ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ ﴿ذلك الفوز الكبير﴾. [سورة البروج الآية: ١١].

وأجد أنَّ قصة الصحابي الجليل عمير بن الحمام في بدر قصة تسجّل انتصارًا باهرًا للداعية، فالوقوف عندها واستخلاص ما فيها من دورس وعبر يعطي دلالة على ما نحن بصدده.

---

(٣١) رواه الحاكم ٣/٣٨٨ ـ ٣٨٩ وصححه الألباني في فقه السيرة (١٠٧).